

آثار الملوك والسلاطين المصريين

بمدينتي القدس والخليل

للاستاذ أحمد رمزي بك

روى عن أنس بن مالك أنه قال :
 « إن الجنة لجن شوقاً إلى بيت
 القدس ، وبيت المقدس من جنة الفردوس »

مقدمة :

الملوك مصر وسلاطينها اليد الطولى في إنشاء المباني العالية
 بمدينة القدس ، إذ لهم المدارس والمساجد وبيوت العلم والرباطات
 والحصون التي بنوها وأنفقوا عليها من أموالهم وحبسوا على
 خدمتها الأوقات ورصدوا لوجوه الخير الأموال والضياع والهار
 مما لا يصدق الجليل الحال .

ذلك لما حباهم المولى تعالى من بسطة في الملك والعظمة ،
 ولما رزقهم من نصر يتبع نصرأ ، ولما اشتهروا به من أنهم خدام
 الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، وسدنة الحرمين الشريفين بالقدس
 والخليل . والمتتبع لهذه الحقبة من الزمن يقف حائراً أمام عظمة
 تلك اليهود وأمام عظمة هؤلاء الملوك ، وتأخذ الحيرة لماذا أخفى
 الناس تلك الأيادي البيضاء ؟ وما الحكمة في تناسي ماض لنا
 هو جزء منا لا أقول يكفل شخصيتنا ، بل أذهب إلى أكثر من
 ذلك فأقول هو أكبر مظهر لمصر الإسلامية العربية وأثرها في
 تاريخ العالم .

عمر إلى الماضي :

كان ذلك في نهاية عام ١٩٣٥ ، هو أول عهدى بفلسطين ،
 حين دعيت إلى المشاء بمنزل الندوب السامي البربطاني ، الجنرال
 السير آرثر وركوب ، فجاء مسكني بجوار المستر رينشموند مدير
 مصلحة الآثار ، وتناول برفق عدة مسائل تمت بصلة إلى التاريخ
 والآثار ، وعرض لمحة زوكفلر التي رفضتها مصر ، وقبلتها
 فلسطين ، ورأى في هدوء واستماعاً ورغبة في الاستزادة من

علمه ، فدعاني لزيارته في متحفه ، وكنت مأخوذاً بالتمرف إلى
 الآثار المسيحية ، وقد وضع النائب البطريركي لاروم الأرثوذكس
 برنامجاً لي ، فرأيت أن أحدثه في ذلك وأن أستعرض معه بعض
 ما لديه من التحف مما يمت إلى المصور المصرية القديمة . وهنا
 طفق يتحدثني بطلاقة عن دهشته من الثروة الإسلامية التي أنشأها
 ملوك مصر في أنحاء فلسطين ، وما خلفوه فيها . وكنت أنصت
 لحديثه وهو يقول : إن مصير هذه الآثار إلى الزوال إذا لم
 تتداركها عناية حكومة إسلامية قوية مثل مصر . وإني لدهش
 من موقفكم ، تقيمون الدنيا لاكتشاف حجر قديم فرعوني ،
 وتنسون ماضيكم القريب . لكم المدارس والمساجد والقباب مما
 يشهد لمركم وأصرائكم بحسن الذوق وعظمة النفس وعلو الهمة
 في تذوق الفن ، وتتركون كل هذا وكأن الأمر لا يعنيكم ؟

وكنت أجهل الكثير مما يقول ولا أعرف من آثارنا سوى
 مدرسة قايتباي ، فأخذت في أشباع نفسي المتطلعة إلى الاستزادة
 من المعرفة ، وقلت إذا نظر الناس إلى الماضي نظرة تقديس وإلهام ،
 فلم لا أنظر إليه نظرة الباحث المتعلم ؟

إن الثمن الذي سأدفعه قد يكون غالباً ، إذ أحدث الناس من
 قوى عالم تسمعه آذانهم : وقد يتخذ الذين لا يؤمنون بشيء
 أقوالاً هزواً لهم ، لأنني أحدثهم بما لم يألّفوا ، ولأنني أضع للناس
 قياً جديدة لبعض الأشياء التي لم يؤمنوا بها ولن يصدقوا بعظمتها
 وكان أهم ما لدى أن أومن أولاً بعظمة ماضي الإسلام وأن
 أعيش فيه ، وقد كان ولا يزال مهما غلا الثمن ومهما كانت التضحية
 فإنه من أسعد الأوقات أن أشيد بهذا الماضي ، وأن انتهر
 الفرص للكتابة فيه . وليس أسعد من أن يسمع العالم انتصار
 جنود العروبة على حسابات الصهيونيون وإخراجهم من داخل
 مدينة القدس القديمة ، فإن هذا النصر جعلني أحن إلى القدس ،
 وهي مدينة من أحب مدن العالم إلى قايي ، ولذلك يلذني أن أكتب
 شيئاً عنها في هذه الأيام التاريخية الخالدة التي نعيشها : أكتب
 للحقيقة والتاريخ ، وأعيد قيم الأشياء كما كانت ؛ فأرجو ألا يحمل
 كلامي على غير ظاهره ، أو أن يؤخذ بأنه يرمي إلى أهداف
 سياسية . لقد عاشت مصر والشام سوياً أكثر من ثمانية قرون ،
 وعلى صعيد هذه الأرض كتب أسلافنا بدمائهم قصص الملاحم

أما ابنه الملك الأشرف المذفون على مقربة من مقام السيدة نفيسة فقد كان من أعظم الملوك حتى إنه على يديه أتم الله فتح البلاد الساحلية وإنهاء الحروب الصليبية ، وفي عهده تم عمل فصوص الصخرة الشريفة التي بدأت منذ أيام الملك الظاهر ، ووجدت عمارة السور الشرقى المائل على مقربة باب الرحمة .

وفي أيام الملك المنصور لاجين جددت عمارة محراب داود الذى بالسور القبلى عند مهد عيسى عليه السلام بالمسجد الأقصى . ثم جاء العهد الناصرى ، أى حكم الناصر محمد بن قلاوون الأخير الذى استمر حتى وفاته ، وكان وزيره بالشام الأمير الكبير تنكز وهو الذى قيل فى محاسنه (١) :

ألا هل ليليات تقضت على الحمى نمود بوعد للسور منجز
ليال إذا رام المبالغ وصفها لشبهها حسناً بأنام تنكز
وهو الذى له المنشآت العظيمة بمصر ودمشق والقدس
وبيروت ، وله الأيادى البيضاء حتى مدينة ملاطية فى الشمال
حيث أراضى الجمهورية التركية . فى عهد ولايته عمر السور
القبلى بالقدس ورخم صدر المسجد الأقصى ومسجد سيدنا الخليل
إبراهيم ، وتم فتح شباكين بالمسجد الأقصى ، ووجدت تذهيب
القبين قبة الصخرة وقبة المسجد الأقصى . ويقول صاحب الأنس
الجليل : ومن عجب أن تذهب قبة الصخرة كان قبل العشرين
والسبعمائة ، وقد مضى عليه إلى عصرنا هذا أكثر من مائة
وثمانين سنة وهو غاية الحسن والنورانية ، ومن رآه قضى أن
الصانع قد فرغ منه الآن .

ويطول بنا البحث إذا ذكرنا عمائر تنكز كلها فى القدس
فهى كثيرة متنوعة فيها بناء الأبواب والقنوت وأهمها إيصال
المياه من بركة السلطان بظاهر القدس إلى المدينة وهو عمل
هندسى عظيم ، هذا غير أعمال الترميم فى الأسوار والقلاع
والحصون والأبراج .

وتد نقش كل هذه الأعمال على الرخام والحجارة وعليها
تاريخ عمارتها . لقد كان عصرنا فداً لا يعادله فى المعمار عصر
من المنصور .

(١) من قصيدة صلاح الدين الصفدى لما تولى الأمير الطنطا المالحى
نيابة الشام

الكبرى وذاقوا طعم النصر ، كما أنشأوا أعظم ما يمكن تصويره
من المباني ، تروياً إلى الله وللخدمة هذا الدين الحنيف ، وكان
عامل الخير وحب الناس طابعهم ، وكانت تسوقهم عاطفة خالصة
نحو هذا ، لذلك نجحوا حيث أخفق الغير : فإذا كتبت أشير إلى
هذا الماضى العظيم فأدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة

سلسلة من أعمال النجيب والإهداء :

كان ولا يزال للمسجد الأقصى وللمسجد الخليل إبراهيم
المقام الأسى فى نفوس المسلمين . ولذلك اعتنى بهما ملوك مصر
من عهد الملك الناصر صلاح الدين والدنيا يوسف بن أيوب الذى
أتم الله فتح القدس على يديه ، فإنه اتخذ سنة عمل الخير والعمارة ،
واتبع سنته من جاء بعده من ملوك بني أيوب .

وفي عهد الدولة التركية من الأمراء البحرية بعد أن اتسمت
الفتوحات وتواتت الانتصارات تردد اسم الملك الظاهر بيبرس
كأعظم القواد المالمين وشبهه بالسكندر الزمان ، وكان من أكبر
البناء والمنشآت أفرد له الأستاذ كريسويل العالم المشهور كتاباً
عن آثاره بمصر . أما فى فلسطين فقد ذكر صاحب الأنس الجليل
— قاضى القضاة أبو النجيم عجير الدين الحنبلى رحمه الله — أنه
اعتنى بعمارة المسجد الأقصى وجدد فصوص الصخرة الشريفة
التي على الرخام ، وعمر الخان السكان بظاهر القدس الشريف من
جهة الغرب إلى الشمال المعروف بخان الظاهر ، ونقل إمامه باب
قصر الخلفاء الفاطميين ، ووقف عليه نصف قرية لفتا وغيرها
من القرى .

ولقد كانت أكثر قرى دمشق وأراضى البقاع داخلة فى
أوقاف الظاهر الذى لم يترك باباً لفعل الخير إلا طرقة وحبس
الضياع على أئمة المسجد الأقصى ، وعلى تفرقة الخير وإصلاح حال
النازلين والأتين للزيارة من مختلف الجهات .

وفي أيام الملك المنصور قلاوون تمت عمارة سقف المسجد
الأقصى من جهة القبلة مما يلي الغرب ، وتم إنشاء الرباط المنصورى
المشهور بباب الناظر ، وهو رباط كان فى منتهى الحسن والبناء
الحكم ، هذا غير الإصلاحات التى أتمها المنصور بالحرم الخليلي
وقبر الرباط والبيارستان اللذين أنشأهما هناك .

ما يستوقف بحسنة اب الذكي الأروع ، وكل أحد ممن له معرفة بالأعشاب بأنى إليه وبأخذ من تلك الأضرار ما علم منفعة ومضرته .

ومن حديثه يتبين أن هذا الحرم الشريف والقبة والصخرة ، لم تدم اهتمام أهل الخبر من مختلف الناس ، فهذا الأمير علم الدين سنجر الجاولى بنشئ مدرسة باسمه ، وهذا عالم من العلماء أو تاجر عظيم يتبرع من ماله ، وينشئ بئراً أو شبيلاً أو باباً ، أو يهدى مصحفاً أو قنديلًا .

ومن قبيل ذلك ما أورده صاحب الأنس الجليل : من أن سلاطين بني عثمان وغيرهم من ملوك المسلمين ، شاركوا سلاطين مصر قبل الفتح العثماني في الاهتمام بالمسجد الأقصى : فقد حصل السلطان مراد بن محمد بن بايزيد على ترخيص ملوك مصر بإقامة قراء يقرأون القرآن في مصحف مهدي منه إلى الصخرة . وكان بنو قرمان من ملوك التركان بأرض الروم لفصل فهم السلطان إبراهيم على إذن بالقراءة في الصخرة .

هربابا الملوك :

ولو تتبعنا هذه الهدايا لاتسع بنا البحث ولذا نكتفي بما جاء من حسنات الملك الأشرف ابتاك ملك مصر الذي يمت بالمصحف الكبير الذي وضعه بالمسجد الأقصى تجاه الشباك المطل على عين سلوان ، وأوقف له قارئاً ورتب له عقده ألف ومائتا أردب ترسل سنوياً قيمتها أربعة آلاف دينار وثمانية دنانير .

ثم توالى الخبرات والهدايا في أيام السلطان أبي سعيد خشقدم المؤيدى إلى أيام الملك الأشرف قايتباى وفى عهده كان ناظر الحرمين الشريفين الأمير ناصر الدين محمد بن النشاشيبي جد الأستاذ الكبير إسماعيل النشاشيبي رحمه الله .

وجاء السلطان إلى القدس مرتين وأقام بها وأنشأ وعمر مما يجعل لرحلته إلى الديار الشامية أهمية وروعة تشجعنا على أفراد كلمة خاصة بهما .

أحمد رمزي

ولما ولي السلطان برقوق العرش أراد أن يسير على غرار من تقدمه من ملوك بيت قلاوون فأخذ في عمارة بركة السلطان وأنشأ دكة المؤذنين تحت قبة الصخرة تجاه المحراب للبلغين ، ووقف الضياع التي كان يملكها بناحية نابلس على سباط سيدنا الخليل وشرط ألا يصرف ريعها إلا على السباط الكريم : وأخذ بسنة الملك الظاهر بيبرس فسكتب نص الوقفية على باب مسجد الخليل إبراهيم كما كتب الظاهر ومن جاء بعده نصوص الأوقاف على أبواب المساجد فلم يبق ذلك شيئاً بل نزع الأملك المرصودة لعمل الخير وتداولتها الأيدي ، ولم تجمعها القوانين الوضعية كأملك مرصدة للمنفعة العامة فلا يصح تملكها أو وضع اليد عليها ولله في خلقه شؤون .

مؤلفات العصور الماضية :

ذكر صاحب مسالك الأبصار ، أن صاحب تاج الدين أبو الفضائل أحمد بن أمين الملك ، ألف كتاباً سماه « سلسلة المسجد في صفة الصخرة والمسجد » .

ولا أدري هل أبقى الدهر على هذا المؤلف أم ذهب مع الزمن . والذي يظهر مما أورده صاحب مسالك الأبصار نقلاً عنه أن المؤلف لم يترك شاردة من غير أن يأتي بها . وإنى لدهش من موقفنا إزاء ماضينا ؛ فهذا يكتب عن المسجد الأقصى في حوالي سنة ٧٤٣ هـ ، وهذا يقصر عنه الكثيرون ، ونعيش نحن في القرن العشرين وقد ملأ أنصاف الرجال الدنيا بدعائهم عن أنفسهم ، ولا نجد بين أيدينا كتاباً يرفقنا بالمسجد الأقصى . فلنسر منه قليلاً : نجد في كلامه عن قبة الملك المعظم (ويقصد بها جزءاً من المدرسة المعظمية) أنه يقرر أن دروس النحو كانت تقام بها ، وأن عدد طلابها كان خمسة وعشرين نفرًا من الحنفية ؛ وهي من عمل ملوك بني أيوب المعظام . وفي كلامه وصف دقيق للرباط المنصوري والأبواب والشبابيك التي بالحرم . ثم انظر إليه حيث يقول :

« واقد مضى على في مجاورة هذا الحرم الشريف الفصول الأربعة ، فرأيت له في كل فصل محاسن في غيره لم تجمع ، وهو أنه من مبدأ فصل الربيع تبدو فيه من الأزهار المختلفة الألوان